التسامح قيمة إنسانية لبناء الحضارات

المجتمع الأندلسي نموذجا

عزيزة الوزيري

إذا كان التسامح هو الاعتراف بالغير عبر الحضارات، وأيضا هو إمكانية التشارك في العيش والتفكير، إذن هل يمكن اعتبار التسامح قيمة كونية و طريقا للتفاهم والتفاعل الثقافي والحضاري وفسحة للعيش المشترك؟ وإذا كانت العلاقة الجدلية بين التسامح والتفاعل الحضاري قد حضيت باهتمام الباحثين والمفكرين قديما وحديثا، فكيف كان للتسامح كقيمة إنسانية حضورا تاريخيا في تفاعل الحضارات وبنية أساسية لتطورها وازدهارها ؟

ألا يمكن اعتبار سيادة قيم المحبة والتسامح في الحضارات القديمة ما أفضى إلى ظهور وتطور الإبداعات والابتكارات التي شهدتها الحضارة الإنسانية من قبيل الكتابة والفلسفة والعلوم والقوانين والآداب والفنون بشتى أنواعها؟

يعتبر التسامح قيمة كونية عرفتها الشعوب الإنسانية منذ الأزل، إذ اتخذت هذه القيمة الإنسانية أشكالا وصيغا مختلفة ومتنوعة من حيث البساطة والتعقيد والامتداد والحضور، وسجلت هذه الأشكال والصيغ حضورها بوحي التنوع الحضاري والثقافي للمجتمعات الإنسانية، إذ أن التنوع الثقافي كان دائما هو الوسيلة لإثراء القيم الإنسانية النبيلة من قبيل قيمة التسامح.

وبذلك كان التسامح هو قبول الاختلاف، والاعتراف به، فهو يعبر عن صيغة احترام مشاعر ومعتقدات الآخرين، أي معاملة الآخرين كبشر بصرف النظر عن ألوانهم وانتماءاتهم الدينية والعرقية والمذهبية أو خلفياتهم الاجتماعية وعكس التسامح هو التعصب(1). والتسامح يبقى هو فن عيش مشترك مع التطلع دوما إلى الحفاظ على مسافة صحيحة بين ضرورات الحياة العامة وضرورات الحياة الخاصة(2)، ومهمته هي تأمين التعايش في إطار التباين(3)، لأن التسامح لا يمنع ألوان المعارضة

والاختلاف بل ولا الصراعات ولكنه يعترف بأن تأكيد الذات يقتضي الاعتراف بالآخر، أي الاعتراف بالآخر من حيث مشابهته الأساسية ومخالفته الأساسية سواء بسواء(4).

التسامح في الحضارات القديمة: يسجل مفهوم التسامح Tolérance حضوره في عمق التجربة الإنسانية، ويتبدى في صيغ تتنوع بتنوع المجتمعات الإنسانية في إطار الزمان والمكان والمراحل التاريخية للبشرية قديما وحديثا. فقد كان التسامح حاضرا في بناء الحضارات القديمة ويشهد تاريخ البشرية أن الحضارات في مراحل ازدهارها الأولى كان سائدا فيها بمفهومه التعايش، فكانت الحضارات القديمة شاهدة على التسامح من خلال احترام ثقافات الآخر، وقيمة التسامح تختزل العديد من القيم الأخلاقية، بعضها دينيا، بعضها فلسفيا والآخر يدخل في خانة الحقوقي، وهذه المستويات ليست وليدة لحظة تاريخية، بل هي نتاج التطور التاريخي في العلاقات الإنسانية بأبعادها الاجتماعية والثقافية والسياسية والدينية.

هذه العلاقات الإنسانية التي نسجت معية التنوع الديني والثقافي المرتبط بالتنوع الإنساني الذي ينعكس على الانتماءات والميولات والمذاهب والطموحات مما يؤدي إلى تمايز في المنطلقات الفكرية للبشر وتغاير في الأنماط السلوكية ومهمة التسامح هي تأمين التعايش في إطار هذا التمايز والتباين، ومن ثم الحفاظ على العلاقات الإنسانية وحماية ما تنطوي عليه من مضامين اجتماعية للوجود الإنساني(5). فالتسامح إذا ما تتبعنا جذوره الأولى قبل تشكل العلاقات الاجتماعية المتشابكة، نجد أنه كان في مفهومه المبسط قيمة أخلاقية تحكم العلاقات في المجتمع الواحد.

ومع تطور المجتمعات وانتقالها التدريجي من عصور "التوحش" إلى عصور "التمدن" وما نتج عن ذلك من بناء الحضارات، تطور مفهوم التسامح ليأخذ بعدا أخلاقيا وفلسفيا معا، فلقد ساهمت الحضارات القديمة في تطوير هذا المفهوم ووسعت من دائرته ليشمل المحبة والمؤاخاة وهي القيمة التي تسربت من الفكر المصري والبابلي القديمين إلى الحضارات والفلسفات الدينية اللاحقة.

لقد تنوعت واختلفت أشكال التسامح وأنواعه من حضارة لأخرى وعصر لآخر، وفي الحضارات القديمة أخذ التسامح بعدا أخلاقيا واستمد حضوره من الديانات التي نشأت وتطورت في هذه الحضارات، بحيث كان للدين ولازال أهمية كبيرة في حياة الشعوب، بل إنه من أهم العوامل المؤثرة في سير حياتها، وأسلوب تطور حضارتها، فالمعتقدات والأفكار الدينية تحدد الإطار العام لسلوك الإنسان وحياته، عاداته وتقاليده، أعرافه وقوانينه، وتكون الخلفية المؤثرة في حياته الاجتماعية والفكرية والسياسية، وقلما نجد أي عمل قام به الإنسان القديم أو الحديث أي أثر تركه إلا وكان للدين فيه تأثير كبير(6).

وقد ارتكزت الديانات التي عرفتها الحضارات القديمة ببلاد الرافدين ومصر على نشر الأخلاق الحميدة كالصدق والتسامح والمحبة، وكانت المعابد أماكن للتعبد والتربية ومراكز للتعليم وكذلك للغناء والموسيقى والإنشاد في جو تسوده المحبة والتسامح ومعها ظهرت وتطورت الإبداعات والابتكارات التي شهدتها الحضارة الإنسانية من كتابة وعلوم وقوانين وآداب وفنون.

فاعتبرت الحضارة الفرعونية الحوار واحترام الرأي والرأي الآخر شكلا من أشكال التسامح، وتطور هذا المفهوم في الحضارة اليونانية مع الفلاسفة الإغريقيين على يد سقراط أفلاطون، وأرسطو ليتم معهم وضع الأسس العلمية الأولى للجدل أي فن الحوار. ويشكل التزام سقراط بالتسامح جزءًا من إيمانه المعرفي باستقلالية العقل و بالتالي، اكتشاف الحقيقة عن طريق حوار منضبط ومتواضع ومتسامح.

التسامح الديني: شكلت الأديان جميعها حلقات متصلة تحمل في طياتها رسالة واحدة على مدى التاريخ الإنساني تدعو إلى التسامح والخير والحق والصلاح ، مبتغاها البِرّ والحب والرحمة والتسامح لتحقيق الأمن والسلام. ومن هنا كانت قيمة التسامح هي الحلقة المشتركة بين الأديان والمطلب النبيل الذي يجعل الإنسان يؤمن بالتبادل الفكري والثقافي الذي يتيح فسحة التعايش والحوار لتحقيق إمكانيات للتقارب والتفاهم كلبنات أساسية في البناء الحضاري من خلال تحويل الديانات والثقافات إلى منابع للحب، والتضامن والحوار المثمرين بين الشعوب.

إذ يعتبر التسامح الديني وعلى مر العصور من أبرز جوانب مفهوم التسامح، الذي يستوجب الاحترام المتبادل، والتقدير المشترك، ويدعو إلى أن تعارف الشعوب لتتقارب، ويفرض التعامل في نطاق الدائرة الموضوعية من دون المساس بدائرة الخصوصية من غير إثارة لحساسيتها، وانتهاك لحرمة ذاتيتها، وهي دائرة تبادل المعارف والمنافع والمصالح المشتركة الفاعلة، والتي يعود مرددوها بالخير على الإنسانية جمعاء، و التسامح ليس هو التنازل أو التساهل أو الحياد بل هو الاعتراف بالآخر والاحترام المتبادل "الدين المعاملة" ومن تم فالأديان السماوية كلها تنطوي على قيم التسامح الديني التي تقود المؤمنين إلى التحلي بأخلاقه.

ففي الإسلام والمسيحية واليهودية على حد سواء، الكثير مما يدعو ويؤسس لهذا المفهوم العميق للتسامح الديني،لأن التقاء هذه الديانات على تكريم الإنسان بصفته خليفة الله على الأرض(7)، واعتباره كائنا حرا، وأن يذهب المرء في إيمانه إلى مقاصده العليا، أي الإعلاء من قدر الإنسان، ورفض أي استغلال أو إقلال من كرامته ككائن مخلوق.

إن المعنى السائد للتسامح الديني يقوم بالأساس على مبدأ قبول الآخر باختلافه وتباينه. يقبل هذا المبدأ بالفروقات والاختلافات الدينية والثقافية على أنها طرق أخرى في فهم الله والإنسان والكون. فالتسامح بهذا المعنى، ليس مساومة فكرية أو دينية، كما أنه بالمقابل لا يلغي الخصائص والمميزات الفريدة، ولا يقفز فوق الفوارق الدينية والحضارية، إنه الاعتراف الهادئ بوجود التباينات، ومن ثم احترام هذه التباينات باعتبارها إثراء للوجود البشري ودعوة إلى التعارف والتثاقف، وفي هذا المعنى تقول الآية الكريمة "يا أيها الناس إنا خلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا"(8). كما أن الديانات السماوية تستقي من معين واحد، من أجل التسامح، فقال الله تعالى: "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه"(9).

التسامح الديني في الإسلام: يرسخ الإسلام مبدأ التسامح الذي هو أساس التعايش الديني بين الإسلام والآخر والاعتراف بحقوقه وحريته في المعتقد، ولعل سورة الكافرون كانت نبراسا لتأصيل التسامح والتعايش وخاصة الآية الكريمة "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ"(10).

وبذلك جسد الإسلام نموذجا في التسامح، حين اعترف لأبناء الديانات اليهودية والمسيحية بحقهما الإيماني ووجودهما وممارسة شعائرهما الدينية وحياتهما بكامل تفاصلها، وحفظت لهما هذا الحق انطلاقا من إيمان الإسلام بهاتين الديانتين السماويتين، و كما جاء في قوله تعالى " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين"(11).

بل إنه تعالى يأمر المسلمين بهذا الإيمان والتعبير عنه: " قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيئون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (12). كما أباح الإسلام لمعتنقيه أكل طعامهم والزواج منهم: " اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، وطعامكم حل لهم، والمحصنات من المومنين والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم"(13).

والإسلام في جوهره شريعة السلام والرحمة والإنسانية(14). وذلك يتمثل بقوله تعالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"(15)، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم:" إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة(16). وهو في كل الحالات يحذر من الاعتداء على أهل الذمة إذ يقول عليه السلام " من قتل قتيلا من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة"(17). فأخذ بذلك مفهوم التسامح مع الإسلام قيمة أخلاقية

وسياسية ودينية أسسها التعددية واحترام المعتقد والرأي القائم على مبدأ الانسجام في الاختلاف الذي يهدف إلى تحقيق السلم والأمن والتقدم الاقتصادي والاجتماعي و الفكري للأفراد والشعوب.

التسامح في المسيحية: لم يكن الإسلام وحده في دعوته إلى مبادئ التسامح، فالمسيحية بدورها تقول أناجيلها: "لقد قيل لكم من قبل أن السنّ بالسنّ والأنف بالأنف، وأنا أقول لكم: لا تقاوموا الشرّ بالشرّ بل من ضرب خدّك الأيمن فحوّل إليه الخد الأيسر ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك ومن سخّرك لتسير معه ميلاً فسر معه ميلين(18)"من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان(19)". "عاشروا الناس معاشرة إن عشتم حنّوا إليكم وإن متّم بكوا عليكم(20).

وتتضمن المسيحية مبادئ التسامح في أَجلى صوره، بل إنه تسامح يبدوا أحياناً فوق الطاقة.إن التعاليم المسيحية المتمثلة في الإنجيل، مليئة بالتعاليم التي تلزم المسيحيين بالتعامل مع بقية أبناء الأديان والطوائف الأخرى بالمحبة والتسامح، وعدم نبذ الآخر المختلف عقيدة ولونا وشكلا، وأن المحبة هي الشعار الرئيسي للدّين المسيحي.

لقد كانت تدعو الناس إلى المحبة والتعاطف والتعاون والرحمة. فهذا عيسى عليه السلام يقول في إنجيل يوحنا: "وصية جديدة أعطيكم إياها: أن تحبوا بعضكم بعضا". وكما جاء في رسالة يوحنا الأولى: " كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس، وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة أبدية ثابتة فيه ". ويقول أيضا في إنجيل: "طوبى للرحماء لأنهم يرحمون، طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله"، وجاء في وصايا عيسى عليه السلام. "فأنتم يا إخواني دعاكم الله لتكونوا أحرارا، ولكن لا تجعلوا هذه الحرية حجة لإرضاء شهوات الجسد، بل اخدموا بعضكم بعضا". وفي إنجيل يوحنا: "من له ثوبان فليعط من ليس له، و من له طعاما فليفعل هذا" . وجاء في إنجيل متى: "ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم و خسر نفسه".

التسامح الديني في اليهودية : تدعو الديانة اليهودية بدورها إلى التسامح كما جاء في الوصايا الواردة في التوراة والتي تحمل في طياتها العديد من قيم التسامح:" كل ما تكرهُ أن يفعلهُ غيرك بك فإياك أن تفعلهُ أنت بغيرك(21)". "اغتسلوا وتطهّروا وأزيلوا شرَّ أفكاركم...وكفّوا عن الإساءة تعلّموا الإحسان والتمسوا الإنصاف(22)".

إن التسامح الديني، استنادا إلى ما سبق، كان دائما مطلبا إنسانيا دعت إليه كافة الأديان دون استثناء، ويبقى التسامح الديني قاعدة للتعايش بين الأديان السماوية وبين كافة فصائل الإنسانية. فجميع الرسالات السماوية دعت إلى العفو والتسامح ومحاربة الظلم وتكريم الإنسان، وبذلك فالأديان

هي منظومة متكاملة تكمل بعضها البعض وتتقاطع فيما بينها، والحقيقة أن الديانات السماوية لم تأت لتلغي الواحدة الأخرى، وإنما جاءت مجددة ومتممة لبعضها، جاعلة من الإنسان محورها الأساسي، فسيدنا المسيح يقول. "ما جئت لأنقض وإنما جئت لأتمم" وإلى هذا أشار أيضا النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقال: "إن مثلي، ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بني بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين" رواه البخاري ومسلم، ويقول. "نحن معاشر الأنبياء إخوة ديننا واحد وشرائعنا شتى"، وهكذا لم يأت المسيح ليهدم رسالة موسى، ولم يأت محمد ليجرد المسيح من رسالته، فكل نبي أتي مصدقا لما سبقه، والنبي السابق أتى ممهدا لمن بعده، وفي قوله تعالى " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلاّ اللّه، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللّه، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون"(23). ومن ثم كان الدين دائما مصدر تسامح وسلام، لذا كان على الإنسان تدبير فضاء تعايشه وحواره ليكون أداة بناء لا أداة هدم وتطاحن.

الأندلس نموذجا للتسامح: وشذى هذه الصورة للتسامح، نجدها عبر الحضارة الإسلامية بالأندلس إبان التواجد الإسلامي (92-897هـ) (711-1492م)، في مجتمع امتاز بالتنوع الثقافي، حيث تألف من عناصر مختلفة الأعراق والأديان، من عرب وبربر، وأسبان وصقالبة، ومسيحيين ومسلمين، ويهود وغيرهم(24). وقد تفاعلت هذه العناصر تفاعلا عميقا جعل من المجتمع الأندلسي مجتمعا متميزا في بنائه الحضاري والفكري، ولم يكن ليتسنى هذا البناء ألفسيفسائي الجميل لولا التسامح، واحترام الهويات الثقافية لمختلف عناصر النسيج الأندلسي، حيث أن دولة الإسلام في الأندلس أرست دعائم حضارة متسامحة تعايشت فيها الأجناس والأديان، وتثاقفت فيها اللغات والثقافات، وانصهرت فيها الطاقات على تنوعها،فأثمرت مجتمعاً حياً، متفاعلاً، مبدعاً تحققت فيه للإنسان كرامته، وكفلت له حريته وحقوقه فأصبح التسامح قاعدة والتعصب استثناء، فجسدت الأندلس بذلك مسرحا لأهم مظاهر التعايش المشترك من خلال حرية المعتقد، والثقافة المتسامحة التي تقوم على الاختلاف والتنوع، فكانت البيع والكنائس والمساجد تتواجد جنبا إلى جنب. ولقد انخرط الأندلسيون ينخرطون على اختلاف أعراقهم ومعتقداتهم الدينية في الإنتاج الفكري والإبداع في الآداب، والفنون والعلوم واضعين بذلك اللبنات الأساسية لبناء حضارة بلاد الأندلس التي اجتمع فيها ما تفرق في الحضارات الأخرى.

مجتمع أندلسي متسامح: ولعل أبرز مظاهر التسامح بالمجتمع الأندلسي، التسامح الذي ساد بين مختلف عناصره باختلاف دياناتهم من مسلمين ونصارى ويهود وكافة شرائحه، حيث تمتع الجميع بضروب

الرعاية والتسامح، وقد كانت التعدّدية في الأندلس (تعدد الأديان وتعدد الأجناس) الصورة الحية لواقع الحريات الدينية، و لم تكن تتوقف عند الإقرار بحق الآخر في الوجود، بل تتجاوز ذلك إلى احترام حريته في إقامة شعائره واختيار معتقده بلا تضييق، فتعايشت الديانات السماوية الثلاث الإسلام والمسيحية واليهودية جنبا إلى جنب،وعاش الذميون الأمن والاستقـــرار متمتعين بحرية العقيدة والتعبد وهكذا حافظوا على عاداتهم وتقاليدهم، وترك لهم نظامهم الاجتماعي والقضائي كما كان في العصر القوطي دون تدخل أو إكراه، بل كانت دائما محاولات لإيجاد حلول عبر الاجتهادات التي كانت تقدم للفقهاء(25).

اندمج اليهود والنصارى مع المسلمين في جو من الحرية والسماحة وتكافؤ الفرص في مجتمع أندلسي يتعلمون ويتثاقفون، ويسهمون في البناء جنبا إلى جنب دون عائق، واعتلوا مناصب عالية ووظائف سامية في الدّولة(26)، فبلغ التسامح أوجه في عهد الخليفة عبد الرحمان الناصر الذي جمع في بلاطه وفي وقت واحد بين الطبيب العالم أبي الوليد محمد بن حسين المعروف بابن الكتاني والأسقف النصراني ربيع بن زيد والطبيب اليهودي حسداي بن شبروط(27). وبذلك جسد الأندلسيون فضيلة التسامح، والحوار والتفاعل مع العناصر الأخرى لدرجة أثارت إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء(28).

فكان التسامح بالمجتمع الأندلسي حقيقة معاشة بين مختلف مكوّناته الفسيفسائيّة عبر الاحتفال المشترك بأعياد المسيحيين واليهود والمسلمين، ولا شكّ أنّ هذه المشاركة الاجتماعيّة بين المسلمين والنصارى واليهود ترجع إلى أجواء الحرية التي كان يعيش فيها أصحاب الديانات، فعاشت هذه الأطراف جنبا إلى جنب قرونا طويلة، وتحرّرت العادات من أواصر الرّوابط التقليدية العشائرية، وتسارع نسق الاختلاط والانصهار، وأفضى إلى خلق أجواء مميزة تعددت ألوانها ومظاهرها، مما أفضى إلى صورة جديدة للمجتمع الأندلسي، فشارك المسلم المسيحيَ واليهودي في أعيادهما الدينية ومناسباتهما العائلية، وهي مشاركة روحية أفرزتها قرون عديدة من التعايش، ومن الأعياد التي شارك فيها مسلمو الأندلس إخوانهم المسيحيين عيد المسيح عيد سان خوان(29) وعيد يناير الذي كان يحتفل به في النصف الأول من هذا الشهر، وهو احتفال أفاضت المصادر الأندلسية في وصف مظاهره(30). فحسبما يستشف من أزجال ابن قزمان، فإن المسلمين انطلاقا من مبدأ التعايش المشترك، لم يجدوا غضاضة في التحلي بأجمل الأزياء في هذا العيد المسيحي، واستضافة الأصدقاء والأحباب لقضاء أجواء الليل في الاحتفال والسمر، وتغص الموائد بأصناف الحلويات وغيرها من شتى أصناف المأكولات، بل

إن بائعي الفواكه كانوا يطرقون أبواب منازل المسلمين على حد سواء مع المسيحيين في الأندلس لبيع ما تستلزمه هذه المناسبة من احتفال، وتعبيرا عن مشاركتهم فيها(31).

التسامح وأثره على الإنتاج الفكري والإبداع الأدبي والفني بالأندلس: يعتبر التسامح الذي شهدته بلاد الأندلس وما صاحبه من تمازج وتنوع ثقافي واجتماعي كان تمظهرا حضاريا انعكس على الإنتاج الفكري والإبداع الأدبي والفني، والذي ازدهر وبلغ درجات عالية من المعرفة التي اغتنت من تلاقح الثقافات وتعايش الأديان بين مختلف المفكرين المسلمين والمسيحيين واليهود. مما جعل تاريخ الأندلس يزخر بشواهد تؤكد نشاط النصارى واليهود إلى جانب المسلمين في مجالات متعددة من الفكر والعلوم والأدب والفنون، ومجالات التسيير والتدبير.

وفي هذا الجو من التسامح والتعايش اتخذ النصارى واليهود العربية لغة لهم وأبدعوا فيها أدبا وشعرا، وصاروا يكتبون بها أفضل مما يفعلون مع لغتهم اللاتينية، فانتشرت اللغة العربية في أوساط اليهود والمسيحيين، وظلت وسيلة للتعبير الكتاب، كما يؤكد ذلك المستشرق الإسباني بالنثيا(32)، فانعكس هذا التأثير إيجابا على ازدهار النتاج العلمي والمعرفي عند علماء أهل الذمة خاصة في مجال التأليف والترجمة.

ولعل أثر هذا التنوع الثقافي والتعدد اللغوي تمثل بجلاء في نشأة وتطور فني الموشحات والزجل، إذ يعتبر فن الموشح الإبداع الأندلسي الذي لا هو عربي مشرقي خالص، ولا هو إسباني غربي محض، إنه هجين يحمل في جيناته وفي أعماقه تراث أجداده من العرب المسلمين، ومن القوط والأيبيرين النصارى، وكان لهذا الامتزاج أثر عميق في تكوين الشخصية الأندلسية"(33). كما أن الأزجال استطاع الأندلسيون من خلالها أن يعبروا عن شؤون حياتهم اليومية واهتمامات عامة شرائح المجتمع بطريقة قريبة إلى نفوسهم،بلغة عامة الناس مستعملين العامية الأندلسية ممزوجة بعبارات من اللهجة الرومانسية"(34).

ومع ازدهار الفنون والآداب والعلوم الذي اشتغل عليه الأندلسي اليهودي والمسلم والمسيحي تجسد التسامح كقيمة إنسانية الذي من خلاله تم خلق فسحة تمازج المجتمع الأندلسي، وفتح باب التفاعل مع ثقافة الآخر والحوار والتواصل معه(35)، فكان ازدهار الموسيقى وما صاحبها من تبوء مكانة رفيعة للموسيقى الروحية والإنشاد الديني، حيث أضحت الموسيقى "اللغة" المشتركة التي يفهمها كافة أفراد المجتمع، ويعبرون بواسطتها عن مشاعرهم المفعمة بالتسامح والمحبة، لغة يسهم فيها الجميع دون تفريق في الجنس أو العقيدة، في إبداع كلماتها وألحانها، في مجالس واحدة، فجاءت ألحانها مرآة تعكس

الميول الموسيقية لكل الأجناس المكونة لهذا المجتمع وتشهد على مدى ما كان بينها من ترابط وتمازج وتعايش وتسامح في ظل ما تميزت به الحضارة الإسلامية بالأندلس من جو الحرية الذي أتاح ألوانا من الإبداع ظهرت أثارها في الموسيقى التي كان لها أثر كبير فيما عرفته من تطوير وتجديد(36)، لتشكل تقاسيم ما سيعرف بالموسيقى الأندلسية.

وفي هذه الأجواء شهدت الأندلس مثاقفة مفحمة بالتسامح على كل المستويات والمجالات، أدبا وفكرا وعلوما، بل حتى في مجالات الاقتباس والتأليف في شتى المناحي حيث طال التأثر والتأثر مجال التصوف والإنشاد الديني(37)، حيث نبغ مفكرون أمثال الصوفي أبي الحسن الششتري ألفونسو العاشر مبدعين في ما تميزت به الأندلس من تسامح فكري كما سجل ابن عربي أجمل رائعة تعبيرا عن الحب والتسامح في الكثير من قصائده.

وبفضل انتشار ثقافة التسامح وتردد جميع عناصر المجتمع الأندلسي مدارس الترجمة والتقاء علماء النصارى بالمسلمين انتقلت عناصر الصوفية الإسلامية باختلاف مذاهبها إلى الغرب المسيحي في القرون الوسطى وتأثر بها عدد من المدرسيين واللاهوتيين والقساوسة في أوروبا، ومن أبرزهم رايموندو مارتين ورايموندو لوليو وألفونسو العاشر الملقب بالعالم. وبذلك خلص أكثر الدارسين أن الأندلس كانت أوسع منفذ وبابا انتقلت عن طريقه ضروب المعرفة والثقافة إلى أوروبا في القرون الوسطى ولقد استمر هذا التأثير قرونا طويلة، حيث إن الأوربيين، كانوا واثقين من أن كل تقدم فكري أو ثقافي في بلادهم يجب أن يرجع إلى الاحتكاك بالمسلمين آنذاك ويلاحظ على رجالات الكنيسة المستقلين أنهم أولوا اهتماما خاصا بالثقافة الإسلامية، فكانوا يترددون على طليطلة منذ القرن الحادي عشر للميلاد، وكان لذهابهم وإيابهم بالغ الأثر في تسهيل التبادل الثقافي بين الإفرنج في الشمال والمسلمين في الجنوب(38).

مما يدل على أن الأندلس شكلت بامتياز ساحة للحركات الفكرية العميقة المستنيرة، ومجالا للحوار الفكري بين التيارات والثقافات المختلفة. تماشيا مع طبيعة الحضارة الإسلامية والثقافات المترتبة عنها، حضارة تقوم في أساسها على التسامح الديني، والحوار الحضاري في بعده الإنساني.

وفي هذا الصدد أوردت الكاتبة الكوبية روزا مينوكال في كتابها، نماذج من الحوار والتسامح بالمجتمع الأندلسي بين الأديان الثلاثة التي تعايشت في الأندلس، مثمنة بذلك التساكن الذي غلب على تجاور القيم الثقافية المتنافرة والمنتمية لشعوب وجماعات إثنية متباينة، كان من الممكن أن تكون سببا للتعصب والعنف، ولهذا تبين للمؤلفة،أن هذا التسامح والتعايش الذي عرفته بلاد الأندلس كان له أثر

كبير على نتائج النهضة الفكرية والفنون والآداب في الحضارة اللاحقة، كما تؤكد الكاتبة على الدور الذي لعبته الترجمة في تمرير الثقافات وسيرورات التملك المعرفي المنشئة لأسس التسامح والحوار، داعية إلى إعادة قراءة التاريخ الثقافي والأدبي في الأندلس للوقوف على مدى غنى هذا التراث الإنساني ولاستخلاص الدروس واستشراف المستقبل، لأنه كان نموذجا حضاريا وإنسانيا متسامحا، أصرّ على أن تتعايش الديانات السماوية الثلاثة في ظل الإسلام الأندلسي والذي يظل حلماً إنسانياً مفتوحاً على المستقبل"(39).

لقد كانت ثقافة التسامح في الأندلس هي الأساس الذي قام عليه المجتمع الأندلسي، وقد استمدت جذورها من الثقافة الوسيطية، التي مازالت صالحة في وقتنا الحاضر لدحض مظاهر التطرف والعنف. وهذا النموذج من التسامح والحوار الحضاري النبيل هو سر تفوق الأندلسيين في كل مجالات الإبداع وتأثيرهم في الحضارات التي أعقبت عصرهم.

الحاجة إلى ثقافة التسامح لتحقيق السلام: إذا كان التسامح يمثل فضيلة مدنية وضرورة سياسية وأخلاقية واجتماعية، فإن الباحثون والدارسون يؤكدون على أهمية قيمة التسامح بين الشعوب وبين الحضارات المختلفة، ومن أجل ذلك عقدت عدة مؤتمرات وأسست عدة مراكز للدراسات والبحوث، للغور في مفهوم التسامح لكونه وسيلة لتحقيق الحوار بين الثقافات والحضارات للتأكيد على أن كافة المنجزات الحضارية هي ملك للجنس البشري بأجمعه، في إطار احترام التعددية الثقافية والتنوع البشري المؤدي للخلق والإبداع .

ويبقى التسامح في قيمته الإنسانية صيرورة تاريخية لحقيقة أن التفاعل بين الثقافات والتعاون الايجابي بين مختلف الحضارات بدءا من أقدم العصور إلى اليوم، كان دائما أساس بناء وازدهار الحضارات من خلال إقرار مبادئه وإشاعة قيمه وأخلاقياته لمد جسور الحوار بين الثقافات والحضارات الشيء الذي يقتضي الاعتراف بتداول الحضارات وتفاعلها والاستفادة من بعضها، أساسها الحوار القائم على التشاور والتفاعل الثقافي والفكري بين مختلف الشعوب، وهو مدى القدرة على خلق وإيجاد الأجواء المناسبة بين مختلف الأفكار والمعتقدات، والقدرة على التجاذب الايجابي بين مختلف الثقافات والأديان والسياسات وبناء جسور من العلاقات والتواصل والتعارف بين الشعوب من خلال التسامح المجتمعي والديني والثقافي.

هكذا بات واضحاً أن التسامح الديني كان هدفا إنسانيا آمنت به الشعوب القديمة كما دَعَت إليه الأديان كافة دون استثناء منذ الأزل، كما أن نفحته العطرة أضحت تبرز الضرورة الملحة لهذه

القيمة للحفاظ على الإنسان، فأطلت الحاجة إلى التسامح من خلال تنظيم مهرجانات الموسيقى الروحية وملتقيات دولية من مؤتمرات وندوات ولقاءات فنية تدعو إلى التسامح والتأكيد على أن قيمة التسامح، في معناه العميق يرتكز إلى مبدأ فلسفي وديني طليعي، وهو القبول بالوحدة الكونية والإنسانية، والتي يشكل التسامح فيها إطارا للتأكيد على أنه قيمة حضارية ومدنية نبيلة.

1–قاسم الصراف، غياب المفاهيم التربوية في البيئة المدرسية، الكتاب السنوي العاشر، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الكويت، 1994–1995. ص116.

2–ريمون بولان، الحرية في عصرنا، ترجمة وتقديم عادل العوا، دار طلاس، دمشق،1993 ص 151

3–ريمون بولان، الحرية في عصرنا، مرجع السابق،ص152.

4–ريمون بولان، الحرية في عصرنا،المرجع السابق، ص.152

5–ريمون بولان،المرجع السابق، ص152.

6–فاضل عبد الواحد علي وآخرون، جوانب من حضارة العراق، العراق في التاريخ، دار الحرية، بغداد، 1983 ص208

7–قرآن كريم سورة الاعراف الآية 129 – الأنعام الآية 133

8–قرآن كريم سورة الحجرات الآية 13

9–قرآن كريم سورة الشورى، الأية 13

10–قرآن كريم سورة الكافرون الآية 6

11–قرآن كريم سورة النحل الآية 125

12–قرآن كريم سورة البقرة الآية 136

13–قرآن كريم سورة المائدة الآية 5

14–إحسان الكيالي، السلامة الشخصية وحقوق الدفاع ودور المحاماة في الإسلام، مجلة الحقوق، السنة السابعة، العدد الثالث كلية الحقوق بجامعة الكويت، سبتمبر 1983،ص 184.

15–قرآن كريم سورة النحل، الآية 44.

16–حديث رواه مسلم، كتاب البر والصلة، الجزء الرابع، صفحة 307، حديث رقم 2599

17–جلال الدين السيوطي، الجامع الكبير، المجلد رقم 1، الصفحة .715

18–ميشال الحايك، المسيح في الإسلام، دار النهار، ط4، بيروت، 1961، ص 159

19–المرجع السابق. ص 158

20–المرجع السابق. ص 164

21–الأب باسيليوس كناكري، الكتاب المقدّس للمدرسة والعائلة في العهدين القديم والجديد – العهد القديم ص 135

22–المرجع السابق. ص 139

23–قرآن كريم سورة ال عمران الآية 64

24–عباس الجرّاري، التّسامح الدّيني وأثره في حضارة الأندلس، ندوة الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التّسامح. ط1، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، 2003. ص 41.

25–د.إبراهيم القادري بوتشيش،المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس نموذج من العطاء الحضاري الأندلسي،مجلة دراسات أندلسية،عدد:11،تونس،1994ص 73.

26–عباس الجرّاري، المرجع السابق ، ص 48.

27–محمد بنشريفة، التسامح الديني، السفر الثاني عشر من مطبوعات أكادمية المملكة المغربية ص18

28–د.إبراهيم القادري بوتشيش،المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس نموذج من العطاء الحضاري الأندلسي،مجلة دراسات أندلسية،عدد:11،تونس،1994ص 22.

29–العبادي، الأعياد في مملكة غرناطة، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد، 1970، ص 140.

30–ابن قزمان، ديوان ابن قزمان، تحقيق كورينطي، مدريد 1980، زجل رقم 72 – ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف بمصر ، ج1، ص 294.

31–إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار الطليعة، بيروت 1993،ص 93.

32–جانثاليت بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، 1945 ص 488

33–الأوسي حكمت ، فصول في الأدب الأندلسي، مطبعة سلمان الأعظمي، بغداد، 1974 ص 34

34–آنخيل جنثاليث بالانثيا ترجمة حسني مؤنس تاريخ الفكر الأندلسي، الهيئة العامة للكتاب 2011 ص 21

35–انظر تاريخ الفكر لأنخل بالنشيا، وتاريخ الأدب الأندلسي لإحسان عباس.

36–د قاسم الحسيني الأدب الأندلسي القضايا والظواهر، المطبعية الحسنية ، ط1 ، ط1 2007 سلا ص 1

37–الإسلام والمسيحية مجلة عالم المعرفة عدد 215 نوفمبر 1996 ص 12

38–ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، بيروت (د. ت)، ص 96.

39–د ماريا روزا مينوكال، الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح،ترجمة:عبد الحميد جحفة ومصطفى جبّاري، منشورات دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب،ط:01، 2006م، ص6

صدر حديثا

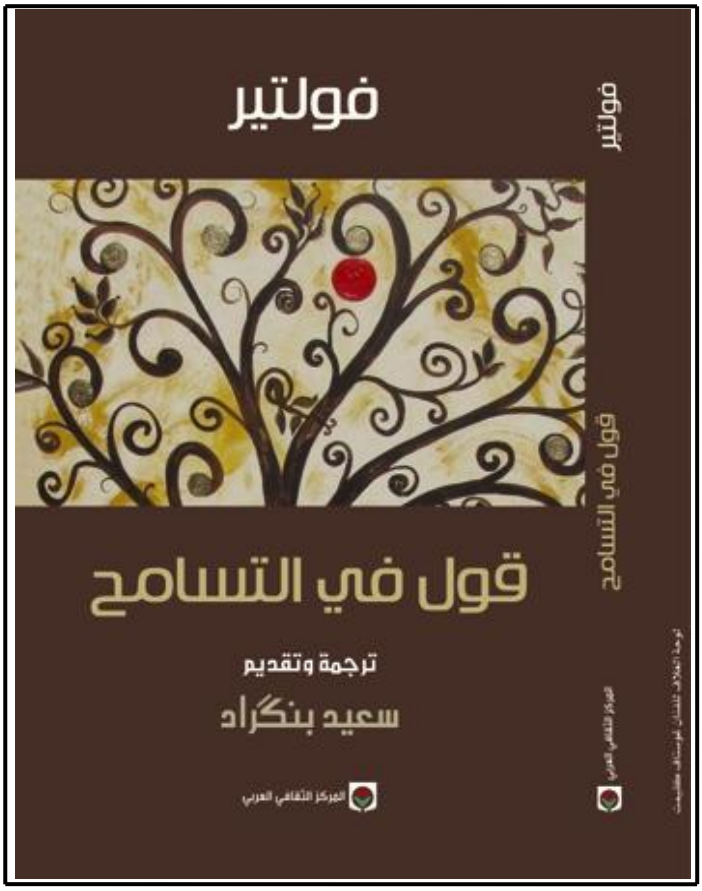
فولتير
قول في التسامح
ترجمة وتقديم
سعيد بنكراد
المركز الثقافي العربي
فولتير
قول في التسامح
المركز الثقافي العربي